الحداثة الغربية وتجلياتها على الشعر العربي المعاصر

د. رضا عامر
جامعة، ميلة.

مدخل:

لقد طرح موضوع الحداثة بالنسبة للمجتمع العربي هاجسًا ظلّ يؤرّقه على مدى عدّة قرون، ومهما تعددت تعريفات الحداثة سواء كانت تاريخية أو فلسفية،فقد بات التعامل معها على أنها مجموعة من القيم التي يمثلها المجتمع الغربي في فترة نهوضه مع نهايات القرن السابع عشر وبدايات الثامن عشر، فإنّ كلّ ذلك لا ينفي على الحداثة أنّها كانت موضوعا للدرس الفلسفي لسجالات طويلة في حقول المعرفة الفكرية، وبهذا تجلت أسبقية الفكر الغربي في تبني مفهومها ومرجعياتها ومع ذلك لاننفي عن المجتمع العربي الإسلامي عدم معرفته بالحداثة وموضوعاتها التي لم تجد الترحيب والتنظير رغم أنّ بداياتها كانت مع نظرية الهدم التي طرحها الشعراء الموالي في بداية العصر العباسي من تحطيم للنموذج التقليدي للنص الشعري العربي والخروج عن المألوف والدعوة إلى الخرق والتجديد وكذلك الأمر في ضرب أركان الإسلام والطعن في القرآن الكريم (مسألة خلق القرآن) فكل تلك القضايا التي عاشتها الأمّة العربية الإسلامية لم تجد الترحيب بها لكون المجتمع لم يكن مهيأ بعد لتقبل تلكم المواضيع والخوض فيها لعدم نضج الفكر العربي حينها، فكانت المبادرة للغرب خاصة المساهمة في صنع المستقبل الحداثي الذي وجد المناخ المناسب لطرحها، وتعديل وتحوير كلّ مافيه من قيم وسلوكيات وأفكار وفق نمط فكري فلسفي معين في حين بقي الفكر العربي يعيش في دائرة التمسك بالتراث والتخوّف من هذه الحداثة الغربية التي بات يرى فيها نهاية تاريخه وهويته وحضارته، فكان الإقبال عليها بحذر شديد يسوده التوجس من كلّ ماتبدعه الحضارة الغربية بلغة عصرها، والسؤال الذي يتجلى علينا هو: ما مفهوم الحداثة من وجهة نظر الأدباء والفلاسفة عامة الشعراء خاصة ؟ وما هي جذورها في الفكر الغربي والعربي؟

1- المحور الأول : مفهوم الحداثة والمعاصرة فكريًا:

لقد بدأت صور الحداثة والمعاصرة تبرز للفكر الإنساني خاصة بعد الثورة التي قام رجال الدين في الكنيسة الأوروبية على وجه خاص بداية بالثورة الإصلاحية على معتقدات الكنيسة الساذجة من (صكوك الغفران، آلية التعميد، لغة الكتاب المقدّس) منهم القسّ(مارتن لوثر) في الكنسية الألمانية والقس (جون كلفن) في فرنسا ثم رحل منها بعد الإظطهاد الممارس عليه من طرف الملك فرنسوا الأول إلى سويسرا التي استقر بها، ثم يأتي القسّ (أورليخ زونجلي) في سوسيرا كل هذا حدث في القرن الخامس عشرة الميلادي لتنتهي هذه الحقبة من الحداثة بظهور ثلاث مذاهب كنسية في أوروبا منها: (الكاثوليك/الأرثذوكس/البروتيستانت)هذا عن ثورة الحداثة الأولى ثم جاءت بعدها الثورة الفرنسية عام 1789م، وامتدت حتى خارج أوروبا من أجل إنهاء الحكم الملكي المطلق الذي ساد جميع دول أوروبا، والأمر نفسه حصل في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي كانت سبّاقة في القيام بالثورة على النظام الملكي الذي فرضته بريطانيا عليها، حيث دامت الثورة خلالها سبع سنوات، كللت بهزيمة الجيش البريطاني وانتخاب جورج واشنطن أول رئيس لـ و.م.أ سنة 1789م خاصة بعد التأثر بأفكار الفيلسوف (جون لوك) الذي حرر أوروبا من قمع الملكية الأرستقراطية،فظهرت خلالها الأفكار التنويرية التي فتحت أعين النقاد والكتاب والفلاسفة على عوالم التغيير الفكري والديني والسياسي، والاجتماعي التي بدأت تتشكل في فكر الإنسان الغربي، وهذه صورة الحداثة الثانية بشكل عام فكانت بذور الحداثة تبرز إلى عقل الفكر الغربي، وتتأصل في كل الميادين، إذن فالحداثة بدايتها مسّت الدين في أوروبا أي الكنيسة ثم انتقلت إلى الحكم السياسي،ثم تختم بالحداثة الفكرية والفلسفية والأدبية مع جون لوك،جان جاك روسو، توماس هوبز، وفلوبير وقوته وشكسبير، وبودلير ومالاريميه وغيرهم من رجالات الفكر الغربي الذين قادوا الحداثة إلى طريق التنوير ـلتنحرف بعدها إلى طريق مسدود إلى العلمناية والإلحادية، والفوضى الخلاّقة.

1- 1. مفهوم الحداثة/ المعاصرة:

إنّ الاهتمام بتدقيق المفاهيم، وتقييدها أمرًا بات ضروريًا سواء من الناحية الابستمولوجية أو من الناحية الفكرية إذا تعلق الأمر بنقل مفاهيم فكرية من حقل دلالي إلى آخر، إذْ أصبحت لفظة (الحداثة) تحمل دلالات وتعاريف متعددة أحيانا، ومتضاربة أحاين أخرى تبعا لتنوع واختلاف حقول المعرفية، والمدارس المنهجية التي وظفت هذه اللّفظة في خطاباتها الفكرية واستعانت بها بفرض نموذج معين من الفكر التحرري، وبالتالي أصبحت اللفظة تحمل في طياتها تناقضات وفروقات توحي بالخروج عن المألوف من القيم والأفكار والسلوكات التي لم باتت تعبرّ عن الموروث المشوه بالأنموذج الواحد،والحذر من الخروج عليه أو تعديله، فنتج عنه صعوبة الخوض في موضوع الحداثة لكونه بات الحديث عنه موضوعا شائكًا، ومتشعبًا، لكونه متعدد المدلولات، وقبل أن نخوض في مفهوم الحداثة الاصطلاحي سيكون من المفيد أن نعرج على مفهومها اللّغوي والاصطلاحي.

أ- المفهوم اللّغوي:

لقد حملت لفظة الحداثة في طياتها عدّة دلالات من خلال المعاجم والقواميس التي فسرتها وشرحتها، فمعجم لسان العرب لابن منظور الإفريقي يعرفها على أنّها لفظة: مأخوذة من الفعل: (حَدَثَ)، والحديث نقيض القديم، والحدوث نقيض القدمة، حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة، والحداثة أو الأمر ابتداؤه، وهي الشباب وأول العمر، وأحدثه فهو محدث وحديث وكذلك استحدثه، ومنه جاءت ومحدثات الأمور ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها[1]، وإذا عدنا إلى بقية المعاجم التراثية من أمهات المصادر اللّغوية نحو معجم القاموس المحيط للفيروز أبادي ومعجم الوسيط وغيرها من المعاجم التراثية نجد كلها تتفق مع ماجاء به معجم لسان العرب من الكلام ذاته، ومنه فجميع المعاجم تؤّكد على أنّ لفظة (الحداثة) توحي بالتجديد والتغيير.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

بات من العسير وضع مفهوم دقيق للحداثة إذ ليس هناك اتفاق وإجماع بين المفكرين والفلاسفة والأدباء حول طبيعة الحداثة لذلك سنحاول عرض بعض التعاريف لمجموعة من النقاد والمفكرين حولها، وهذا تجسيدًا لملامح الحداثة العامة التي تعتبر من أهم القضايا في تاريخ الأدب العربي المعاصر.

فالحداثة لا تعتبر مذهبا كباقي المذاهب، "بل هي حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم ولا تكون وفقا على زمن دون آخر، فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة على السلفي المألوف"[2]، فعلاً فالحداثة تعبر عن تنوع الحياة الإنسانية وتطورها وفق رؤى ونظريات متعددة المرجعيات تجانس مع رؤيتنا للحياة الاجتماعية دائمة التجديد والتغيير،وفي الصدد نفسه نجد (سمير سعيد حجازي) يشير إلى أنّ الحداثة "حركة فكرية علانية علمية هدفها تغيير المفاهيم والمناهج التقليدية التي تعالج الفنّ والأدب وإرساء مفاهيم وقواعد جديدة"[3].

أمّا (محمد علوان سالمان) فيرى أنّ" الحداثة عنوان على نزعة أو مذهب، يشتمل على مجموعة من الحركات الطليعية، وتعتمد على مجموعة من المنطلقات التي تستهدف الانقلاب على الماضي وقطع ما يتصل به بهدف استكناه فنية وأدبية جديدة ومغايرة"[4] فالحداثة حسب نظره هي انقلاب على التراث الماضي في جميع صوره ورموزه التاريخية من أجل الوصول إلى معارف ومكتسبات جديدة مغاير للواقع المعيش،وإذا عدنا إلى تصور الحداثة عند (علي أحمد سعيد) الملقب بأدونيس نجده يرى أنّ الحداثة "أن تقبل الحوار مع الآخر، وأن نفكر مجددا بتراثنا دون أن نتنازل عن أصالتنا"[5] في حين نجد(عبد السلام المسدّي) يؤكّد على أنّ"كلمة الحداثة تجري مجرى الدال المتعدد الوجهات طبق تعدد الصور اللّغوية القائمة في أذهان المستعملين(...) وأمّا من جهة المعنى فإنّ الحداثة كثيرًا ماتشحن بتضمينات تجعلها دالاً واحدًا حاملاً لمدلولات متعددة وهذا التعدد بعضه من التنوع وبعضه من باب الاختلاف ولكن البعض الآخر من باب التضارب"[6]، وعليه فالحداثة عند مجموع المفكرين السالفين للذكر لاتخرج عن فكرة رفضٌ للعالم القديم من أجل بناء عالم جديد، والقيم الإنسانية والنزعات الفكرية الفلسفية المتعددة الأوجه والتيارات.

ومنه فمعظم التعاريف السالفة للذكر نجدها تدور في فلك خمس سمات بارزة للحداثة هي (الحداثة تقابل التقليد/ الارتباط بالتاريخ الأوروبي/العالمية/النقد الذاتي/الشمولية)، وهذه الصفات كلها تعكس صراحة ما في هذا التصور الفكري من انقلاب ممنهج على الماضي ومحاولة تحديث مافيه من ترسبات سلوكية وفكرية ومرجعيات دينية مذهبية ونظريات نقدية تدور

في فلك التراث القديم ومحاولة بعثها لتصل إلى المتلقي المعاصر بثوب الحداثة وفق رؤية مغايرة لما عرفت به سلفًا، ومع ذلك يبقى مصطلح الحداثة "في النهاية ثورة على التقليد ورهانًا على التجريد والتجريب والتجديد"(7)

1- 2. مبادئ الحداثة/ المعاصرة:

إنّ المبدع الحداثي الذي خاض تجربة الصراع الحضاري ثم وصل إلى اختيار رؤى جديدة على أساسها فهم الإبداع وغيّر بها مسار الشّعرية العربية من التقليدية إلى حرية الخلق والإبداع ضمن تجربته الفهم الجديد للنمط الذي يرتضيه للحياة والمجتمع، حيث سعي هذا المبدع في النهاية إلى تكوين عالمه الخاص به تدريجيًا لمحاكاة عالم المثل والفضائل، ومنه نجد من بين أهمّ المبادئ التي ارتكزت عليها النظرة الحداثية نذكر الآتي:

أ- تطهير الكنيسة:

تبقى قضية الحداثة في الدين من المشكلات الخطيرة التي أرّقت الكنيسة الأوروبية بكل مذاهبها من كثولكية وأرثذوكسية وبروتيستانتية وحتى برنابية وغيرها من الأديرة والمعابد التي قفت في وجه هذا التيار الجارف الذي خلخل القيم الكنسية بعد العديد من الفضائح التي عرفها الفاتنكان بروما، ناهيك عن العديد من الثورات التي قادها قساوسة من أجل إصلاح النظام الكنسي من تلكم المهازل التي لصقت به وبتعاليم السيد المسيح في كل من إنجيل متا ولوقا وويوحنا ومرقص، فهذا الأمر دفع بالعديد من القوميات والعرقيات في أوروبا أن تعلن خروجها العلني عن سلطة البابا والقس والراهب في ثورة إلحادية غير معلنة فكان الخلاص من الدين هو الحل الوحيد لولوج عالم التحرر والحداثة الغربية التي نادي بها الفلاسفة.

ب- تغيير نظام الحكم:

لقد فهم الإنسان في أوروبا التغيير للسائد والمطلق بالقيام بثورة فكرية على جميع الأصعدة الدينية والسياسية والمعرفية من أجل القضاء على كل مظاهر الخنوع والخضوع للنموذج السائد في وقت ما كالنظام الملكي والبابوية والإقطاعية والبرجوازية والأرستقراطية كل هذا من أجل الحديث عن المساواة والعدالة والحرية في إطار مبادئ الثورة الفرنسية التي قامت على أسس الحداثة، فكان لابدّ من وجود عالم تسوده القيم الإنسانية.

ج- الإباحية:

لقد كان دعاة الحداثة في أوروبا في صراع دائم مع مبادئ الكنسية التي كانت ترفض كل أساليب الخروج عن العرف الإنساني وشبكة القيم الروحانية والوجداتية التي تدخل في تكوين الإنسان الأوروبي، فكانت العديد من الدعوات التي ترفض النمط الواحد والزواج التقليدي والعلاقات العادية بين الرجل والمرأة مشكلة في وجه من خرج عن الأعراف العامة والسلوكات المعتادة،فظهرت المثليات الجنسية بين الرجال والنساء، والزواج من الجنس الواحد،وكثرت دعوات الإجهاض والتحرر من كل القيم والعودة للإنسانية البدائية خاصة لدى فئة الطبيعيين،والعديد من السلوكات الشاذة التي رفضها المجتمع الأوروبي بشكل عام بدعوى الحداثة.

د- الفلسفة الوجودية:

تبني قيم وأفكار الفلسفة الوجودية التي دعا إليها الفيلسوف الفرنسي(جان بول سارتر) خاصة بعد رفضه لمنظومة القيم الاجتماعية والإنسانية والفكرية التي نشأت عليها أوروبا وثار على كل ما هو سائد من نماذج ساذجة في نظره خاصة نموذج الدين والتعاطي مع الكنيسة،فكان الرفض والمعارضة سببًا مباشرًا إلى ظهور العبثية والحتميات والصدف التي كانت وراء خلق الكون والإنسان الذي قذف به من السماء إلى الأرض دون سابق إنذار،فالحياة في نظر الفلسفة الوجودية لاتسحق التضحية لكون الإنسان فيها مسير في جميع أفعاله وسلوكاته وفق نظام خارجي لذلك يستطيع تقدير كل ذلك عندما يعي جميع أسباب وجوده فينتقل إلى مرحلة الحداثة "كغاية تبلغ نهايتها صُعُدًا،ضمن الكلية الكونية"(8)

هـ - اللاتجدرية:

يعني هذا المصطلح الانفلات من جميع القيود التي تكون نظمه وهويته الفكرية والفلسفية والدينية وعليه يجب عليه التخلي عن كل القيم الرجعية التى أصبحت تشكل عائق في سبيل حداثته، فالنوع الواحد مستهلك يجب الخروج عليه والانطلاق نحو اللاجنسانية والتخلي عن فكرة النوع نهائيًا " أنّ كل جديد يتحول، تبعًا لهذه الرؤية إلى قديم بفعل التحول الزمني وتغير الأحوال"(9)، وعلى العموم فهذه جلّ المبادئ التي ارتكزت عليها الحداثة في الفكر الإنساني الغربي والعربي.

2- المحور الثاني: جذور الحداثة عند الغرب والعرب:

لقد تعددت مصادر الحداثة الغربية والعربية وتنوعت أهدافها وغاياتها التي كانت تختلف في كلّ مرة عن غيرها، ومع ذلك اتفقت في المبادئ التي عكست كلّ النظريات والمذاهب الفكرية والفلسفية التي قامت عليها في مرحلة تاريخية ما كما نؤكّد على أنّ الحداثة الغربية تختلف كليًا في جميع أصولها ومنطلقاتها عن جذور الحداثة عند العرب وهذا ما سوف نحدده لاحقًا.

أ- الحداثة عند الغرب:

لقد تزامن ظهور تيار الحداثة في الغرب مع بروز تيار المد الطبيعي الذي أدخلته أوروبا منذ العهدين اليوناني والروماني، امتدادا إلى عصر أباء الكنيسة مرورا بالعصور المتلاحقة التي تزاحمت بكل أنواع المذاهب الفكرية والفلسفات المتناقضة والمتلاحقة، وقد كان كل مذهب له ردة فعل مذهب سابق يحمل في ذاته عناصر اندثاره وفنائه، وقد اختلف كثير المفكرين الذين أرّخوا ونظروا للحداثة الغربية حول تاريخ بداياتها الأولى، وعلى يد من ظهرت، وترعرعت؟ ورغم ذلك يكاد يتفقون على أنّ إرهاصاتها الأولى بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يد جان جاك روسو وجان لوك، وبيرتند راسل والكاتب الفرنسي(شارل بودلير) صاحب ديوان"أزهار الشر"، ولكنها لم تنشأ من العدم بل سبقتها بدايات عديدة، بل هي امتداد لإفرازات و تيارات فلسفية، أدبية، إيديولوجية/فكرية متعاقبة عاشها العالم الغربي بشكل مستمر خاصة بعد الثورة على الثالوث الأسود (الملكية/الإقطاعية/البابوية) فتمرد الفرد الأوروبي عليها جميعًا وقد ظهر ذلك جليا في عصر النهضة الأدبية منذ بدايات القرن الخامس عشر الميلادي، حيث لم تعد الحداثة" مفهوما سوسسولوجيًا أو مفهومًا سياسيًا أو مفهومًا تاريخيًا فقط" (10)

ثم بعد ذلك توالى التجديد بظهور تيارين متوازين الأول منها يرى أنّ الحداثة الغربية كانت امتدادات متجذّرة في حقل الفلسفات العقلية الألمانية،والفرنسة منها خاصة لدى كلّ من(هيجل/نيتشه/شبنهاور/كانط/ ديكارت) التي كرست مبدّأ الفردية كمنحى للتغيير والتحول من الفكر الجمعي المؤلوف إلى فكر أسمى ينير الطريق للإنسانية في حين نجد التيار الثاني يمثله كل من (جوسْ) الذي يرى أنّ الحداثة الغربية متجذّرة في أعماق الثقافة اليونانية واللاتينية على السواء وعلى امتداد هاتين المفارقتين كان هناك صراع دائم و محتدم بين أنصار القديم والجديد عبر مختلف الحقب الزمنية[11].

وقد تعاقب على ركوب تيار الحداثة في الغرب العديد من المفكرين والفلاسفة الذين نظّروا له تدريجيًا، بعد أن سلكوا نفس الطريق الذي بدأه كل من الفلاسفة والمفكرين نحوَ: مارتن لوثر وجان لوك وجان جاك رسو وتوماس هوبز وهيجل وصولاً إلى كل من شارل بودلير، ورامبوا، وغيرهم من سار على دربهم أمثال مالارمييه، وبول فاليري، حتى أخذت الحداثة الغربية شكلها المتكامل النهائي على يد (الإنجليزي توماس. س. إليوت/ روبرت شولز، جون ديوي، إيزرا باوند) بكل ما حمله هؤلاء الفلاسفة والمفكرين من فكر وإيديولوجيات وتمرد على كل ماهو قائم، وتجاوزوا بذلك كل الحدود لتطال الحداثة في النهاية الدين والأخلاق والقيم والعلم، فكانت نتائجها وخيمة أدت إلى تحطيم للماضي والحاضر والمستقبل، خاصة بعد أن ترعرعت الحداثة الغربية وانحرفت إلى سبل خطيرة على أيدي الشيوعيين من أمثال: نيرودا، ولوركا، والوجوديين نحوَ:(سيمون دي بوفوار، وألبير كامي،جان بول سارتر)، لتأتي أكلها في نهاية المطاف على أيدي الجيل المنظر والداعم لها، والمحفز على السير في ركابها من أمثال ألوي أراجون، وهنري لوفيفر، وأوجين جلراندال ورولان بارت، ورومان جاكبسون، وليفي شتراوس، وبياجيه، وغيرهم فتتعدى نطاقها الغربي الضيق لتصل إلى ضفة العالم العربي تدريجيًا عن طريق الترجمات،والرحلات والمناظرات الفكرية والتوجهات الفلسفية التي طبعت ثقافة الشرق العربي لتصبح الحداثة في نهاية الأمر" نزعة إنسانية"[13].

ب- الحداثة عند العرب:

لقد تسللت الحداثة الغربية إلى تاريخ أدبنا العربي، والفلسفي، والعقدي عبر الرحلات والنظم الاستعمارية والترجمات الأدبية رويدا رويدا لكل الفكر الغربي دون غربلته، وقد وجدت الدعم والسند من دعاة التغيير والتجديد الفكري بداية من دعاة الإصلاح نحو: (محمد عبده/ عبد الرحمان الكواكبي/ جمال الدين الأفغاني/ الباروني باشا/عبد الحميد ابن باديس) وإن لم تكن دعوات صريحة في فحواها لتبني الفكر الحداثي الغربي بعد أن عاش عقل العالم العربي زمنًا من الانغلاق، والعزلة الفكرية عن الآخر الذي كبل تقدمه، بالإضافة إلى سياسة الدولة العثمانية الإنعزالية التي أخرت تقدمه وتعرفه

على الفكر الغربي الحداثي، فكانت الثورات الفكرية التي قادها علماء الأمة العربية من مشرقها حتى مغربها بمثابة ثورة حقيقة لأجل حرير العقل العربي فكريًا وعقديًا من جهة والاستعماري الذي قسم تركة الدولة العثمانية من جهة ثانية، مما أوجد تربة خصبة لدعاة الحداثة الغربية منفذًا في فكرنا وأدبنا العربي، إذْ ترعرع فيها العديد من المفكرين منهم: علي أحمد سعيد،خالدة سعيد من سوريا،عبد الله العروي من المغرب،كمال أبوديب من فلسطين،سلمى الخضراء الجيوسي، محمود درويش وصلاح فضل، وصلاح عبد الصبور من مصر، وعبد الوهاب البياتي من العراق، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وحسين مروة من لبنان،وابن باديس وكريبع النبهاني وزهير الزاهري والأمين العمودي من الجزائر، وعبد الله الغذامي، وسعيد السريحي من السعودية، وغيرهم من دعاة الحداثة الأدبية والفكرية في عالمنا العربي.

1- الحداثة عند المفكر(علي أحمد سعيد):

يعتبر (أدونيس) بلا ريب المنظر الأوّل للحداثة العربية خاصة بعد اكتشافه لبذور الحداثة العربية في تراثنا العربي القديم خاص عند كل من المبرد/ ابن معتز/ ابن جني/ ابن رشيق وهؤلاء[14] جميعهم كانوا دعاة للثورة على النظم العربي القديم، وضرورة تبديله بما يتناسب مع كلّ عصر خاصة في العصر العباسي أين ظهرت التيارات الفلسفية والمذاهب الدينية وعمومًا ظلت الحداثة العربية تسبح في نهر الحداثة الغربية وتأخذ من جذورها إلى أن خرجت عن المألوف من تاريخ هويتنا العربية وأصالتنا إلى هدم جميع القيم الفكرية للإنسان العربي، والثورة على العقيدة الإسلامية، والانتهاء بها إلى ظاهرة الإلحاد الفكري والتمرد على الأنظمة ومختلف القيم الاجتماعية والثقافية كما عبر عن ذلك (أدونيس) في مجلة فكر وفنّ عام 1987م، فقد أشار إلى أنّ القرآن الكريم هو نتيجة ثقافات إنسانية لا غير، وبذلك يساوي بين لغة الخالق، ولغة المخلوق وهذا غير مقبول إطلاقًا من الناحية العقدية في منظومة فكر الأمة العربية قاطبة، وهذه دعوة صريحة لطمس القرآن والتشكيك فيه، وبذلك الثورة والتمرد على نظام الموروث والسائد والنمطي بأنواعه المختلفة عقيديًا وأدبيًا وأخلاقيًا، وهذا الأمر لا يمكن تجاوزه بحال من الأحوال، فهو صورة الأمة، ورمز حضارتها، والأمة التي لا موروث لها هي أمّة غير موجودة في الأساس، ويبقى النظم شأنه شأن الأدب قابل للتغيير، والتحوير فيه، وبمأنّ المبدع مطالب بكل ما هو جديد لكي"ينتج فعالية جمالية لايستحويها من العادة السائدة بقوة الأيديولوجيا السائدة بل يستحويها على العكس من الطاقة الكامنة، المقموعة لكن القادرة على تغيير شروطها"[14]

وتبقى حداثة الشاعر أدونيس حداثة فيها الكثير من المتناقضات التي خلقت فجوة كبيرة في تاريخ الفكر العربي قديمه وحديثه مثلما فعله طه حسين عندما تأثر بنظرية الشك الديكارتية حتى عبثت به إلى الشك في القرآن الكريم (النظرة الإلحادية)، وهذا هو الخطر الأكبر، والأمر الآخر أن تقع في فخ الشك في التراث والدعوى إلى تحطيمه والتنازل عليه، ومع ذلك فقد خبر أدونيس لعبة الحداثة الشعرية، وخبر أصولها التي باتت تدفعه إلى التشرب من ينابيعها يكيفها كانت ووجدت، ولعلّ قصيدة (القصيدة غير المكتملة) تشير إلى ذلك:

لغة تتناسل رمل لغات
لا ميراث لا سماء
ما أغرب هذا الإعصار الجارف أشرعة الأشياء
قولوا للمنبوذ: استخلص
ركنًا، أو زاوية
قولوا للتاريخ: استسلم
للرّيح، وقولوا
للصحراء: المفردُ أنت وأنت الجمعُ وقولوا:
هو ذا الوطنُ
مخلوق من عربات أشلاءٍ
لا الشمسُ تراهُ، ولا يتجرأُ أن يتحرك
عفوًا - لا أعرف من أيّ لغات جئتُ، لأي لغاتٍ[15]

وعليه يبقى تسلل الحداثة إلى فكرنا العربي يشوبه الكثير من الغموض لدى الكثيرين من المثقفين العرب من نقاد ومثقفين ورجال دين وسياسة، وإن كان القلة ممن تنبهوا لهذا الخطر الداهم لموروثهم وعقيدتهم وأدبهم على حد سواء فحاولوا التصدي لها بشتى الطرق المتاحة والممكنة، ولكن مساندة أنصاف المثقفين لها ممن يدعون أنهم يسايرون التقدم خلق فينا"ردودًا متناقضة وتوترًا نادرًا بين الإرتكاس والانبهار بين الدعاية اللامشروطة والرفض المبرم"[16]، فكانت الأزمة أشدّ وبالاً على نقدنا وتراثنا العربي بشكل كبير.

2- الحداثة عند محمود درويش:

كانت صرخة الشاعر الفلسطيني(محمود درويش) على الساحة العربية بمثابة نقوس خطر بات وشيكًا لكون "بشاعة القصيدة أشدّ إيلامًا للنفس من تكدس القمامة"[17]،وهذا تصريح مؤلم للقصيدة العربية المعاصرة، والتي باتت تبحث عن لنفسها عن مرجعية، وهوية تحمي مورفولوجيتها الفنية/الجمالية/اللّغوية، ولعلّ نظرة الشاعر/الناقد (محمود درويش) للشعر الحداثي العربي المعاصر تكمن في معرفته لأضداد الأشياء لكي يتمكن " بالإقتراب من إدراك الشعر،لأنّنا بالواضح نفسرر الغامض"[18]،وتبقى مسألة قرض النظم مسألة ذوقية بحتة لما يقدمه المبدع من مخيال/انفعالات/ مشاهد/آهات...،لكون النص الشعري في النهاية" نشاط إنساني داخلي معقد ومدهش حقًا"[19]، كما نجد أنّ النص الشعري الدرويشي نص ذو حمولة هلامية/انشطارية تنفذ وتتلاشى في الذات المتلقية للنص ليصبح النص الدرويشي أسطورة في عالمين بين الحقيقة والخيال اللامتناهي، فجميع نصوص الشاعر (محمود درويش) يعتريها اللامعقول/ اللامتناهي/المفارقات/ الخيالات/ الإنزياحات/ التناصات التي وجدت كلها متنفسًا وحضورًا قويًا في نصوص الشعر المعاصر، ومن تلك المفارقات الشعرية النصية ما يجسده نص قصيدة (كحادثة غامضة):

"في القصيدة! للشعر جسرٌ على
أمس والغد قد يلتقي باعة السمكِ
المتعبون مع الخارجين من الميثولوجيا
وقد يشربون النبيذ معًا
قلت: ما الشعر... ما الشعرُ في
آخر الأمر؟
قال: هو الحدثُ الغامضُ الشعرُ "[20]

فمن خلال هذا التصور للقصيدة العربية نجده يبحث في خفاياها عن وجوده، عن كيانه في عالم بات الأوزان/القوافي/ اللغة لا تقدم تفسيرًا عن الواقع الجديد، فكان لابدّ على الشاعر المعاصر من خوض تجربة شعرية جديدة بثوب معاصر يحمل لواء العصر، وهموم المجتمعات العربية، إذ يقول في هذا الصدد:

"القصيدة بين يدي وفي وسعها
أن تدير شؤون الأساطير
بالعمل اليدوي ولكني
مذ وجدتُ القصيدة شردتُ نفسي
وساءلتها:
من أنا
من أنا"[21]

3- الحداثة عند يوسف الخال:

أمّا عن تجربة (يوسف الخال) الشعرية، فنجدها تجربة شعرية تتسم بالتغيير الفكري والتجربة الواعية للنص، والواقع الشعري المتسم برائحة التغيير، والخروج الإظطراري عن النمذجة للنص الشعري العمودي الذي بات لا يتناسب ولغة المعاصرة،"فلكل عصر حداثته أو حداثاته، فالحداثة ليست مرتبطة بعصر دون آخر، إذ للقدماء، حداثاتهم وللمعاصرين حداثتهم دون أن تجب هذه تلك بل تستفيد منها وتتخطاها إلى الأحدث"[22]، وتبدو حركة الحداثة الشعرية التي هزّت أركان الأمة العربية خاصة من الجانب الفني والجمالي، كان لابدّ عليها من مسايرة حركة الشعر العربي من خلال توظيف أساليب وطرائق أكثر حداثة ومعاصرة منها إلى الأساليب البالية التي باتت من الماضي، لتخلق في النهاية "الأشياء بطريقة جديدة"[23] تتناسب مع وسائل العصر ولغته فتعكس صيرورة التجديد التاريخي والثقافي بمفاهيم أكثر معاصرة متى دعت إليها "حاجة الشعراء لجعل قصيدتهم قادرة على التعبير عن الموضوعات المحدثة التي بدأت البلاد العربية تشهدها"[24]، إذن النص الشعري ليوسف الخال كان بمثابة اللغة الشعرية التي زحزحت النص التراثي عن مكانه ليحل محله شعر حداثي يعبّر عن هموم الأمة العربي وتاريخها،وفي هذا الصدد نسوق الأبيات الآتية من قصيدة (الآية الأخيرة)،والتي يقول فيها:

"نهاية المسير قمّة
ونحن لانسيرُ
نظلُّ في السفوح كومةٌ
تزحفُ أو تموتُ:
ينسجُ ثوبها الأخيرَ عنكبوتُ
ولا يقال للجبال انتقلي
إلى البحار، أو فأقبلي
وابتدئي الحياةْ
لانورَ، لاظلامَ، لا إله."[25].

في هذا النص الشعري نجد الشاعر يخترق اللامحدود في عالم الواقع بلغة الخرق والتأويل التي هزت لغة النص، وجعلته ينتقل

من عالم المجهول إلى عالم من الإستشرفات والتأويلات التي ربطت النص بصوت الشجن، وما يحويه من أحزان، وتغيير بحثًا عن رحلة الخلاص من محنة العذاب من خلال (دورة الحياة).

- خاتمة:

تبقى مسألة (الحداثة) قضية شائكة متشعبة الأطراف في الفكر الغربي والعربي على السواء لما فيها من تعدد للمنطلقات والفلسفات والدعوات الصريحة والمبطنة التي سعت لتكريسها في الفكر الإنساني كنوع من التجديد والتغيير في بنية النظم الفكرية والسياسية والعقدية التي كانت تبرز القيود على بني البشر بشكل مطلق، فكانت الحداثة هي سبيل الحرية المطلقة التي جعلت من الغرب يعيش في عبثية فكرية ودينية، وفوضى أخلاقية من إباحية ومجون ومثلية، وسقوط للقيم الإنسانية وتدنيها.

رضا عامر

الهوامش والإحالات:

(1)- ابن منظور: لسان العرب، مج2 مادة (حدث)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط، ص131.

(2)- يوسف الخال: الحداثة في الشعر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1978، ص 17.

(3)- سمير سعيد حجازي: النقد الأدبي وأوهام رواد الحداثة، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص215.

(4)- محمد علوان سالمان: الإيقاع في شعر الحداثة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الإسكندرية،مصر،ط1، 2008، ص31.

(5)- محمد عزام: الحداثة الشعرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1995، ص 38.

(6)- عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ابنان، ط1، 1983،ص7، 8.

(7)- محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة، إفريقيا شرق، المغرب، ط1، 2006، ص16.

(8)- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنايته وإبدالاتها (مسألة الحداثة)، دار توبقال للنشر، المغرب، ط3، 2014، ص158.

(9)- المرجع نفسه، ص159.

(10)- عبد الغاني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر (مقاربة حوارية في الأصول المعرفية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2005، ص15.

(11)- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنايته وإبدالاتها (مسألة الحداثة)،ص158، 159.

(12)- محمد علوان سالمان: الإيقاع في شعر الحداثة، ص45.

(13)- محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة، ص15.

(14)- أدونيس(علي أحمد سعيد): الثابت والمتحول"صدمة الحداثة"، دار العودة، بيروت، لبنان، ط4، د.ت، ص230.

(15)- أدونيس: هذا هو اسمي وقصائد أخرى، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص423.

(16)- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنايته وإبدالاتها(مسألة الحداثة)، ص160.

(17)- محمد كامل الخطيب: نظرية شعر عند العرب (مرجلة مجلة شعر مقالات، شهادات، مقدمات)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوربا، ط1، 1996، ص608.

(18)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(19)- عبد القادر الرباعي: جماليات المعنى الشعري (التشكيل والتأويل)، دار جرير للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2009، ص17.

(20)- محمود درويش: الأعمال الكاملة، منتدى مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، ط1، د.ت، ص535.

(21)- المصدر نفسه، ص684.

(22)- فاتح علاّق: مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحرّ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط 1، 2005، ص29.

(23)- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنايته وإبدالاتها (الشعر الحرّ)، دار توبقال، المغرب، ط1، 1990، ص10.

(24)- محمد ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، ج1، دار توبقال، المغرب، ط1، 2006، ص81.

(25)- يوسف الخال: الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص306، 327.

ترجمة التشويق في أدب الرحلة

رواية جول فيرن "حول العالم في ثمانين يوم" أنموذجا

أ. صغير مريم
جامعة بن خلدون، تيارت

ملخص:

نعلم أن الكاتب والقارئ شريكان في صناعة الأدب، لأن النص لا يحي إلا بقراءته، فيصبح تفاعل القارئ مع النص شرطا أساسيا في عملية التواصل، من مرسل ورسالة ومرسل إليه، وإلا بقي النص رسالة بلا عنوان، سواء كان النص في لغته أم نصا مترجما إذ تعد الترجمة إعادة فعل التواصل. ويعتبر التشويق من أبرز العناصر التي تثير القارئ وتورطه، فيكون قد أدى وظيفته باعتباره المرسل إليه والمتمثلة في الاستجابة للأثر. وبما أن الترجمة، بالنسبة إلى كريستيان نورد، تدخل ضمن التواصل الثقافي، فإن إنتاج نص مترجم يتطلب تحليل الغرض منه أولا لضمان تلقيه من جمهور معين.

الكلمات المفتاحية: التشويق ـ أدب الرحلة ـ ترجمة ـ المقاربة الوظيفية التواصلية ـ المتلقي ـ الأثر

مقدمة:

تحمل كتب أدب الرحلة في طياتها قيمة فكرية تعليمية، وتتميز بخصائص فنية ينفتح فيها الخطاب على أجناس مختلفة من سرد تاريخي ووصف جغرافي وأسلوب قصصي، يصور عبره الرحالة ما شاهدوه من عادات وتقاليد وأعراف وسلوكات دينية وثقافية تعكس فكرة الآخر ورؤيته الخاصة للعالم.

« Dans les voyages d'écrivains, des parenthèses, des digressions qui empruntent à diverses thématiques, émaillent le récit. Le récit prend des détours sans jamais se perdre. Le narrateur ouvre son récit en permanence mais en maintient toujours le fil. »[1]

«يفتح كاتب الرحلات أقواسا ويأخذ استطرادات، يتناول فيها مواضيع متنوعة تزين نصه، حيث يلف ويدور دون أن يضيع، أي أنه يجعل نصه منفتحا بصفة دائمة دون أن ينفلت حبل أفكاره.» (النص السابق مترجم)

بمعنى أن النص الرحلي يحكي قصة ذهاب ثم إياب الرحالة وما استوقفه خلالها من أحداث ومواقف إلا أنه يفتح أقواسا يتناول فيها مواضيع مختلفة من جغرافيا إلى ديانة أو انثروبولوجيا أو التعمق في وصف ما أو ترجمة لأحد المعالم أو نقل لأخبار بتفاصيلها، وكلٌ يتطلب صياغة معينة، وهذا ما يصنع هجانة النوع الأدبي، وكل هذا تحت ظل ديمومة السرد الأول واستمراريته، حيث لا يشعر القارئ بتقطع وتشتت في الأفكار، وإنما هي عبارة عن إضافات متنوعة وألوان مختلفة تزيد من جمالية النص، وكأن الرحالة في مسيرته يغير وجهة نظره من حين لآخر أو يقترب من واد أو جبل دون أن يغير طريقه.

كما تفرض طبيعة الرحلة وجود النزعة القصصية في أدب الرحلة، وذلك لما يتخللها من أحداث ومواقف يرويها الأديب، والتي تقتضي صياغتها أسلوبا قصصيا يعتمد الوصف والإثارة والتشويق في غالب الأحيان حيث تعد الرحلة قصة وإن لم تتوفر على كل خصائصها.

وممّا يزيد من متعة مطالعة كتب أدب الرحلة هو عنصر التشويق الذي كثيرا ما يتم اعتماده، وهو ملمح فنّي بارز في الأعمال السردية، كما أنه عامل رئيسي في نجاح العمل الفني والأدبي، وكما يقول أحد كتاب المسرح: «انطلاقا من كون الأدب ممارسة ممتعة تهدف إلى إعادة صياغة الواقع وفق حالة إبداعية يتشكل بناؤها ممتزجا بالخيال، فإن التشويق في الأعمال الأدبية السردية تقنية مهمّة من تقنيات الفعل السردي، ولهذا يعمد كتّاب القصة والرواية إلى حقن أعمالهم بالسياقات والأحداث التي تضفي عليها طقسا من الإثارة والتحفيز القرائي، سعيا منهم في توريط المتلقي في كينونة العمل وحراكه الدّاخلي»[2]، وذلك لإبعاد الملل الناتج عن طغيان المباشرة والتقريرية، وكذا إضفاء حيوية، وإثارة المتلقي، وبالتالي تفاعل هذا الأخير مع النص، فيتجاوز مرحلة الجمود ويتوغل في الرحلة وكأنه يعيشها في أدق تفاصيلها. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل: ماهي آليات ترجمة عنصر التشويق في أدب الرحلة؟ وما مدى نجاعة المقاربة الوظيفية التواصلية في التعامل مع عنصر التشويق فيه؟

1- التشويق في أدب الرحلة:

إذا كان البناء القصصي يقوم على بنية سردية يتجلى فيها عنصر التشويق من خلال أفق توقعي لما سيتبع من أحداث، فإن الرحلة، ولما يميزها من ذهاب وإياب ومواجهة للمجهول في